فلسفة «كأنّ»[1]

في الهند وفي الغرب

نظرة المقارن

— ١ —

للسيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

«ان اكبر مساهمة قدمتها الهند الى العالم هي الديانة والفلسفة» الاستاذ السر وليم هنتر

التمهيد

﴿ منزلة الفلسفة الهندية ﴾ صرح القرآن منذ عشرة ونيف من القرون «وما اوتيتم من العلم الا قليلا» . وما اصدق هذا التصريح ! فان العلم بحر لا يسبر غوره ومحيط لا ينال دركه مهما خاضت الانسانية في زمن من الازمان عباب العلم وغاصت على اسراره واحصت مسائله واستقرت دقائقه ، كل ذلك قليل بالنسبة الى ما طواه حجاب الجهل واستتر في خبايا الغيب . وعليه فكلما رفع من ذلك الحجاب وكشف من تلك الخبايا حيناً بعد حين تقدمت الانسانية وعرفت به خطأها من صوابها ، وجهلها من علمها وشرها من خيرها ، فوطأت اعراف المجد وتوقلت معارج الشرف

كانوا يعتقدون الى الايام الاخيرة أن ليست الحضارة الهندية ثابتة الوظائد مشيدة الاركان في القدم والعظمة مثل الحضارات القديمة الاخرى ولكن في سنة ١٩٢٤ حدثت حادثة اماطت اللثام عن تلك الاوهام . فان العالم الهندي مترجي كشف مصادفةً آثار موهنجو دارو والاستاذ مارشال آثار هارتا على شاطىء نهر السند وكانت مطوية تحت الرواسب فدلت على عظمة الهند في الحضارة والتقدم ، في الالف السادسة قبل الميلاد ، فبان به شأوها على غيرها وعازت قصب السبق[2]

كذلك كانوا يرون ان اقدم مصدر للفلسفة هو الفلسفة اليونانية . ولكن البحث

---

(١) هو اسم اطلقه المفكر الفيلسوف الالماني الشهير هانز فاي منير على فلسفته Die Philosophie des Als ob ، اي فلسفة كأن . ويمكننا ان نعبره بفلسفة مثل او خيال فان كأن تفيد معنى التشبيه أو الشك أو التقريب والجملة المحولة بها ليس لمعناها نصيب من الحقيقة لانها تساق لتمثيل الغير الحقيقي

(٢) التفصيل الوافي في الموضوع يجب ان يرجع القارىء الى تقارير مصلحة الآثار الهندية . ويجد ايضاً بياناً موجزاً في مؤلفات الاستاذ السر جون مارشال

والدراسة كشفا القناع عن ان ذلك الرأي خالٍ عن السداد ، وان الفلسفة الهندية أقدم من الفلسفة اليونانية . ثم التشابه التام بين مسائل الفلسفة ومسائل بعض العلوم بالهند وبين مسائل الفلسفة ومسائل بعض العلوم باليونان والدلائل القاطعة الاخرى حملت أكثر الباحثين والمحققين على التأكد بان مصدر الاخير الاول . نعم ترتاب جماعة من العلماء فيه ولكن ليس لديها من قوة الادلة ما يحقق ريبها

قديماً روى الفيلسوف الخطيب الروماني ابولائيوس ان فيثاغورس سافر الى الهند وتعلم الفلسفة فيها[1] كذلك ذكر مترجمه الشهير أيام بليخوس انه كان جوّاب آفاق طرّح به السفر الى اقاصي النواحي فورد فيها شرعة المصريين والآشوريين والبراهمة واستفاد من اسرارهم العلمية [2] . وروى ايوسيليوس المؤرخ اليوناني الشهير عن ارستو كزينوس معاصر سقراط والمؤلف الشهير في علم الالحان ، ان بعض علماء الهند زاروا اثينا وناقشوا سقراط فسألوه ان يوضح غاية فلسفته فقال : البحث عن شؤون الانسان ، فقهقه أحدهم سائلاً : وكيف يستطيع المرء ان يدرك شؤون الانسان بدون معرفته الالهيّ معرفة تامة[3] ؟ وسافر الفيلسوف الشهير ابوليونوس التيّاني من اتباع فيثاغورس في القرن الاول الميلادي الى مدينة تاكسيلا مركز العلوم والثقافة البرهمية حينئذٍ في شمال الهند ودرس فيها الفلسفة على البراهمة[4] . وصرح الكاتب اليوناني الشهير كليمنت الاسكندري (٢١٨ — ١٥٠ م) الذي يشير كثيراً الى وجود البوذيين بالاسكندرية في زمنه ، وهو اول كاتب يونانيّ يذكر بوذا باسمه ان اليونان سرقوا فلسفتهم من البرابرة[5] وحمل افلوطينوس مؤسس مذهب الافلاطونية المحدثة شوقه الشديد لتعلم الفلسفة الهندية على اصطحاب حملة جورديان ضد شابور ملك ايران ليجد هناك من يشد به عرى آماله فيغتبط بفلح مسعاه[6] . حتى في احوال المعيشة الخاصة كان فيثاغورس نباتيًّا لم يأكل لحماً واجتنب ايذاء ذوي الحياة مثل اتباع الديانة الجينية والبوذية واعتقد في حرمة بعض الخضار مثل الباقلاء [7]

---

(١) Leckey : History of European Morals Vol. I pp. 96 note

(٢) راجع H. G. Rawlinson : India in European Literature & Thought p. 4 وأيضاً A. Weber: Histoire de la Philosophie Européenne p. 30 note وكذلك المرجع الآتي وان كان مؤلفه الفاضلان يرتابان فيه ولكن بغير دليل قاطع لذلك مع وجود السموس المعروفة P. Janet & G. Seailles : Histoire de la Philosophie pp. 929

(٣) Rawlinson : India in Europe Thought & Literature p. 8

(٤) MeCrindle : Ancient India pp 184 نقلاً عن المصدر ص ١٨

(٥) Rawlinson : India in Europ. Thought & Literature p 18

(٦) نفس المصدر ص ٥

هذا نزر يسير من الأدلة القديمة الكثيرة ذكرناها موجزة لأننا لسنا بصدد استيفائها هنا . وأما الأدلة الحديثة فجميع الذين قنوا الفلسفة الهندية واليونانية وتاريخهما وعنوهما درساً وفهماً وقراءة في العصر الحاضر وتمهروا في الحكم يرون ان مصدر الفلسفة اليونانية الفلسفة الهندية . فغير واحد من علماء فرنسا والمانيا وبعض البلاد الأخرى ، والمحقق الأديب الشاعر النرويجي كونت بيورنستيرنه ، ومن الانكليز الاستاذ السر وليم هنتر ، والاستاذ كول بروك ، والاستاذ السر وليم جونس ، والاستاذ السر مانير وليمز وغيرهم كثيرون لا أذكرهم الآن يرون هذا الرأي . كذلك استقر رأي الاستاذ الدكتور اين فيلد في مصنفه الشهير تاريخ الفلسفة على ان فيثاغورس ، وانكساغورس وفيرو وغيرهم من حكماء اليونان شدوا الرحال الى الهند ودرسوا الفلسفة على الهنود واستضاؤوا بمشكاتهم [1]

هذا كان شأن الفلسفة القديمة . وأما الفلسفة الحديثة فقل أن يظهر اتجاه جديد فيها ولم يكن للهند في التفكير فيه السبق والقدم غير ان الأمر يحتاج الى البحث والدراسة والمقارنة بامعان ودقة . ان الهند وطن الفلسفة منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة نمت وترعرعت على أراضيها المترامية الأطراف ، ولا يزال بساط جزئها الأكبر مطوياً لم يظهر مكنونها ولا يبين مكنونها بلسان عصري وتعبير حديث . على ان علماء الهند ليسوا بمعزل عنها تاركين أمورها بمضيعة . فقد قرأ العالم الهندي الشهير داس غبتا بحثاً وافياً دقيقاً في اجتماع مؤتمر الفلسفة الدولي السادس في سنة ١٩٢٤ أثبت فيه ان ما قدم الفيلسوف بندتو كروتشي الايطالي ، وهو احد كبار الفلاسفة المعاصرين ، في فلسفته الخاصة ، سبقه الهنود فيه بعشرة قرون . فان مفكرين ومصنفين جليلين من الديانة البوذية اللذين عاشا في القرن التاسع الميلادي وهما « دهرما كيرتي » و « دهرمُتارا » فكرا في أمور وأتياها مأتاها الى أن أصبح غرض بحثهما ودرية فكرهما مسائل هي عناصر فلسفة كروتشي في العصر الحاضر ، فعادا به بنجح مطلبهما في القرن التاسع وهو نفس ما حاد كروتشي بدرك ارتياده في القرن العشرين . وفي الهند غير واحد من الأندية والمجامع العلمية والفلسفية يقرأ فيها مثل تلك الباحث حيناً بعد حين . واليوم نزف اليك مبحثاً طريفاً استغرق بحثه ودراسته غير قليل من وقتنا وهو المقارنة بين فلسفة الالماني الشهير هانز فايهنجر أحد كبار الفلاسفة في العصر الحاضر وبين فلسفة الحكيم الهندي الجليل « ياجنا والكيا » أحد كبار فلاسفة الهند في القرن السابع قبل الميلاد

﴿ الفيلسوف ياجنّا والكيا وفلسفة « كأن » ﴾ عاش ياجنّا والكيا في القرن السابع

(١) راجع المجلد الاول من الكتاب المذكور صفحة ٦٥

قبل الميلاد وهو زمن تكوين اوبانيشادات[١] الشهيرة في تاريخ الفلسفة الهندية . ولد في مدينة ميثيلا عاصمة بلاد ويدها وعاصر ملك جناكا من ملوكها الذي لا ينوه به اوبانيشاد كفاتح أو قائد منتصر ، أو فارس فائز في حلبة الفروسية بل كحكيم في النقاش الميتافزيقي أو رئيس في المجلس الفلسفي أو مسبغ رعايته على الحكماء الشهيرين في دولته أو صديق لياجنّا والكيا يحوز ياجنّا والكيا شأو السبق في الفلسفة والحكمة والعلم وللفضل بين الفلاسفة البراهمة لذلك له في الفلسفة الهندية شخصية لا تجارى وأثر لا يدرك شأوه . ومشربه من المذاهب الفلسفية الهندية « فلسفة ادوائينا »[٢] . وعليه فالآتمان[٣] عنده أساس كوني لجميع الوجود كما هو مركز المعرفة لجميع العلم . فهو مصدر جميع الوجود واصله كما هو منبع يجب أن ينسب اليه جميع الادراكات . وقد أبان عقيدته الكونية في نظرية الانبثاقات الخاصة له . وهي ان الحقيقة الوحيدة للآتمان وان كل شيء آخر « آرتا » (اي بلاهة) لكونه مشتقّا محضاً . ومع ان مسألة تناسخ الارواح لعبت دوراً هامّاً في الفكر البرهمي الهندي ولكن ياجنّا والكيا من علو الفلسفة الادوائيتية يعتبرها غير الحقيقي فان الروح عنده شيء خالد فلاجل اي شيء وفي اي شيء تتناسخ[٤] كذلك هو يعتبر الشعور من وجهة النظر الفلسفي المحض حادثاً زائلا ولكن هذا لا يمنعهُ من اعتبار الآتمان Noeses Noeseos اي الشاهد الذاتي الخالد[٥] والحقيقة الوحيدة في عالمَ الاوهام

واما فلسفة « كأن » له حقين اراد ياجنّا والكيا ان يعتزل العالم ويهجر حياته الدنيوية ويوزّع املاكه على زوجته ما يتري وكاتيايايي . فسألتهُ الاولى عند الوداع عن سر الموت والخلود فقال لها : ان الحقيقة للآتمان وهو في الكائنات مثل كتلة الملح ألقيت في الماء وذابت فيه لا يمكن ان ترى وتجمع مرة أخرى ، ولكن من أي جهة يؤخذ الماء يكون ملحاً . كذلك

---

(١) اوبانيشادات جمع « اوبانيشاد » اسم آخر يطلق على « ويدانتا » معنى الاخير بالسنسكريتية خاتمة ويدا ، ومعنى الاول الجلوس عند الاستاذ لتلقي أسرار العقيدة ؟ وهي عبارة عن الابواب الاخيرة في كل ويد من الويدات الاربعة تتمة كتب المتون في العقيدة وتحتوي على اكثر العناصر من المذاهب الفلسفية الهندية المختلفة لذلك كثرت فيها الشروح والحواشي والتقريرات باشر فيها كل منهم بمنهجه الخاص وأسلوبه الفريد موضوعاً واحداً وهو عقيدة برهمن أو آتمان . وأقدم اوبانيشادات اثنان ١ : — بريهد آرنياكا أوبانيشاد و ٢ — تشندوكيا اوبانيشاد . ونحن سننقل كثيراً من الاولى ونرمز له « بري »

(٢) هو مذهب وحدة الوجود من المذاهب الفلسفية الهندية يقرر ان لا ثنائية بين الروح والمادة ، والنفس والعالم والفكر والوجود بل الحقيقة الوحيدة للآتمان . ويمكن ان يلخص المذهب كله فيما يلي : —
أ — الحقيقة الوحيدة للآتمان . ب — الآتمان معرض للعلم فيما . ج — لا يمكن ان يعرف الآتمان

(٣) آتمان كلة سنسكريتية معناها نفس ، ترد كثيراً في الكتب الدينية الهندية وتستعمل فيها بمعنى الروح الفردي . والوهم عنصر هام في فلسفة ادوائتا فالمعادلة عندها : آتمان = برهمن أي توحيد الروح الفردي مع روح العالم أي الله (٣) بري باب ٢ عدد ٤ و ١١ (٤) بري باب ٤ عدد ٣

آتمان = برهمن اللامتناهي الغير المحدود الكامل العلم يشعر به الكائن في نفسه وفي غيره ولكن بعد الموت لا وجود لذلك الشعور . يريد به ان في الحياة بعد المات لا يبقى شعور الفردية لاندماج روح الفرد في روح الكل . فقالت له مايترى : « ان قولك ان لا شعور بعد الموت شوشني » فرد عليها يا جنا والكيا : « أنا لا أقول لك شيئاً مشوشاً فان الامر واضح . انه حيث كأن ثنائية موجودة يستطيع واحد أن يرى ، ويسمع ، ويشم ويعرف الآخر . ولكن حيث يدرك مدرك الحقيقة ان العالم بأسره آتمان ، فبأي شيء يستطيع وماذا يستطيع أن يدرك ؟ وبأي شيء يستطيع وفيمَ يستطيع أن يفكر ؟ وبأي شيء يستطيع وماذا يستطيع أن يسمع ؟ كيف يقدر على أن يعرف العليم الذي يحيط علمه بكل شيء ؟ »

هذا الكلام وان كان سياقه الحياة بعد المات يفيد رأي ياجنا والكيا في نظرية المعرفة كذلك . فهو يقول بما ان الادراك والسمع والتفكير وغيرها تحدث حين كأن الغير موجود ، لذلك اذا غاب هذا الغير أصبح عمل الادراك والسمع والتفكير غير ممكن . وعليه ففلسفته تقتضي معمول كأن أي الثنائية المثالية أو الخيالية لتصبح الاعمال النفسية مثل الادراك والتفكير ممكنة . ولكن التجربة تبين لنا ان هذا الغير أو معمول كأن غير حقيقي. لذلك فالعمل في منطقة نظرية المعرفة يجب أن تكون الثنائية المعروضة معمول كأن وليست بحقيقية مطلقاً . فهي كأن الثاني وضع بإزاء الاول . وهذا الثاني أو الغير عديم الوجود اذا أزيل عن الاول لا يبقى إلاّ الاول أو النفس كذلك يقرر ياجنا والكيا ان لا يمكن أن يجعل « العالِم » موضوع العلم . ان الذي أعلم ويحيط علمه بكل شيء كيف يمكنه أن يكون معلوماً ؟ وهو أساس نظرية المعرفة عنده

يظهر مما سبق ان ياجنا والكيا ينكر وجود غير الآتمان ولكننا نراه يعدّله في سلسلة الكلام فيما بعد قائلاً : اننا حين نقول نحن لا نعرف شيئاً آخر فهو يدل اننا نعرفه ومع ذلك لا نعرفه . يقصد به ان فلسفة كأن أو الخيال التي توجه الشك الى الكائنات ذات حقيقة موضوعية للعلم وتجعلها مظهراً بغير الحقيقة يمكن ان يعدل بالاعتراف لها بشيء من الحقيقة لأجل الأغراض المتعلقة بعلم النفس فان أدوات الادراك أي أعضاء الحواس لا تنقطع عن وظائفها . ولكن بما ان الوجود الحقيقي لجميع الأغراض الكونية للآتمان فقط لذلك الحقيقة الخارجية التي نعترف بها يجب ان تكون من نوع معمول كأن أي خيالية

هذا ما ذكر ياجنا والكيا من فلسفته في ضمن حرف « كأن » (ذ ايرا» بالسنسكريتية) في بريهد آرنياك اوبانيشاد . ولاوبانيشاد هذا ثلاثة شارحون : شنكرا ، ورامنوج ، ومادهو.